الثالث عشر



الثالث عشر

كَانَ فِي قَدِيمِ ٱلزَّمَانِ ٱمْرَأَةٌ تَعِيشُ سَعِيدَةً بَيْنَ زَوْجِهَا وَأَوْلَادِهَا ٱلثَّلَاثَةَ عَشَرَ. وَكَانَ هَؤُلَاءِ ٱلْأَوْلَادُ يُحِبُّ بَعْضُهُمْ بَعْضاً وَلَا يَتَخَاصَمُونَ لِئَلَّا يُغْضِبُوا أَهْلَهُمْ. فَكَانُوا يُسَارِعُونَ إِلَى تَلْبِيَةِ رَغَبَاتِ وَالِدَيْهِمْ وَإِرْضَائِهِمَا. هٰكَذَا كَانَتْ تَعِيشُ تِلْكَ ٱلْأُسْرَةُ فِي ٱلْأُلْفَةِ وَٱلْمَحَبَّةِ فِي بَيْتٍ صَغِيرٍ جَمِيلٍ عَلَى سَفْحِ جَبَلٍ بِٱلْقُرْبِ مِنْ غَابَةٍ كَبِيرَةٍ.

وَشَعَرَ ٱلْوَالِدُ يَوْماً بِمَرَضٍ أَلِيمٍ مَا لَبِثَ أَنْ ذَهَبَ بِحَيَاتِهِ، فَبَكَتِ ٱلْأُمُّ ٱلْمِسْكِينَةُ زَوْجَهَا حَتَّى جَفَّتْ دُمُوعُهَا.



أَمَّا ٱلْإِخْوَةُ ٱلثَّلَاثَةَ عَشَرَ فَكَانُوا تَارَةً يَبْكُونَ مَعَ أُمِّهِمْ وَتَارَةً يُحَاوِلُونَ تَعْزِيَتَهَا. وَكَانَتْ تِلْكَ ٱلْأُمُّ ٱلْمَحْزُونَةُ أَضْعَفَ مِنْ أَنْ تَقُومَ وَحْدَهَا بِتَرْبِيَةِ أَوْلَادِهَا وَسَدِّ حَاجَاتِهِمْ. فَقَرَّ رَأْيُهَا عَلَى أَنْ تَدْعُوَ «غَطَّاس» صَدِيقَ ٱلْمَرْحُومِ زَوْجِهَا، وَتَطْلُبَ مِنْهُ أَنْ يُعَلِّمَ أَبْنَاءَهَا ٱلِاحْتِطَابَ.



وَبَعْدَ ٱنْقِضَاءِ سَنَةٍ مِنْ ذٰلِكَ تَزَوَّجَتْ بِهِ وَكَانَ فِي بَدْءِ أَمْرِهِ رَجُلًا صَالِحًا ثُمَّ فَسَدَتْ أَخْلَاقُهُ وَسَاءَ طَبْعُهُ لِضِيقِ يَدِهِ فَكَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَجِدَ طَعَامًا لِهٰذِهِ ٱلْعَائِلَةِ. وَبَعْدَ أَنْ تَنَاقَرَ وَٱمْرَأَتَهُ مِرَارًا عَدِيدَةً قَالَ فِي نَفْسِهِ:



لَمْ يَبْقَ فِي ٱلْبَيْتِ شَيْءٌ مِنَ ٱلْمُونَةِ يَقْتَاتُونَ بِهِ وَلٰكِنَّ ٱلْعِنَايَةَ ٱلْإِلٰهِيَّةَ لَا تُهْمِلُهُمْ إِذَا أَصْبَحُوا وَحْدَهُمْ لَا عَائِلَ لَهُمْ. وَلَمَّا ذَهَبَ بِهِمْ صَبَاحًا إِلَى ٱلْغَابَةِ أَخَذَ يُرَدِّدُ بِصَوْتٍ خَافِتٍ، إِذَا بَلَغْنَا ٱلْغَابَةَ تَرَكْتُهُمْ وَحْدَهُمْ وَمَضَيْتُ، وَسَمِعَ «بُلْبُل»، أَصْغَرُ ٱلْأَوْلَادِ، مَا قَالَهُ عَمُّهُ فَفَكَّرَ فِي طَرِيقَةٍ تُمَكِّنُهُ مِنَ ٱلْعَوْدَةِ إِلَى ٱلْبَيْت فَمَلَأَ جَيْبَهُ حَصًى بِيضًا لِيَزْرَعَهَا عَلَى طُولِ ٱلطَّرِيقِ.



وَكَانَ «بُلْبُل» أَوَّلَ مَنِ ٱسْتَيْقَظَ مِنَ ٱلْأَوْلَادِ فَنَظَرَ وَلَمْ يَرَ عَمَّهُ فِي مَكَانِهِ فَصَارَ يَصِيحُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ «غَطَّاس» ! «غَطَّاس» ! وَأَفَاقَ جَمِيعُ ٱلْأَوْلَادِ عَلَى صِيَاحِهِ فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَخَافُوا فَأَنَا أَدُلُّكُمْ عَلَى طَرِيقِ ٱلْبَيْتِ فَٱتْبَعُونِي. لٰكِنَّهُ لَمْ يَهْتَدِ إِلَى ٱلْأَمَاكِنِ ٱلَّتِي زَرَعَ فِيهَا ٱلْحَصَى ٱلْبِيضَ فَضَلُّوا ٱلطَّرِيقَ.



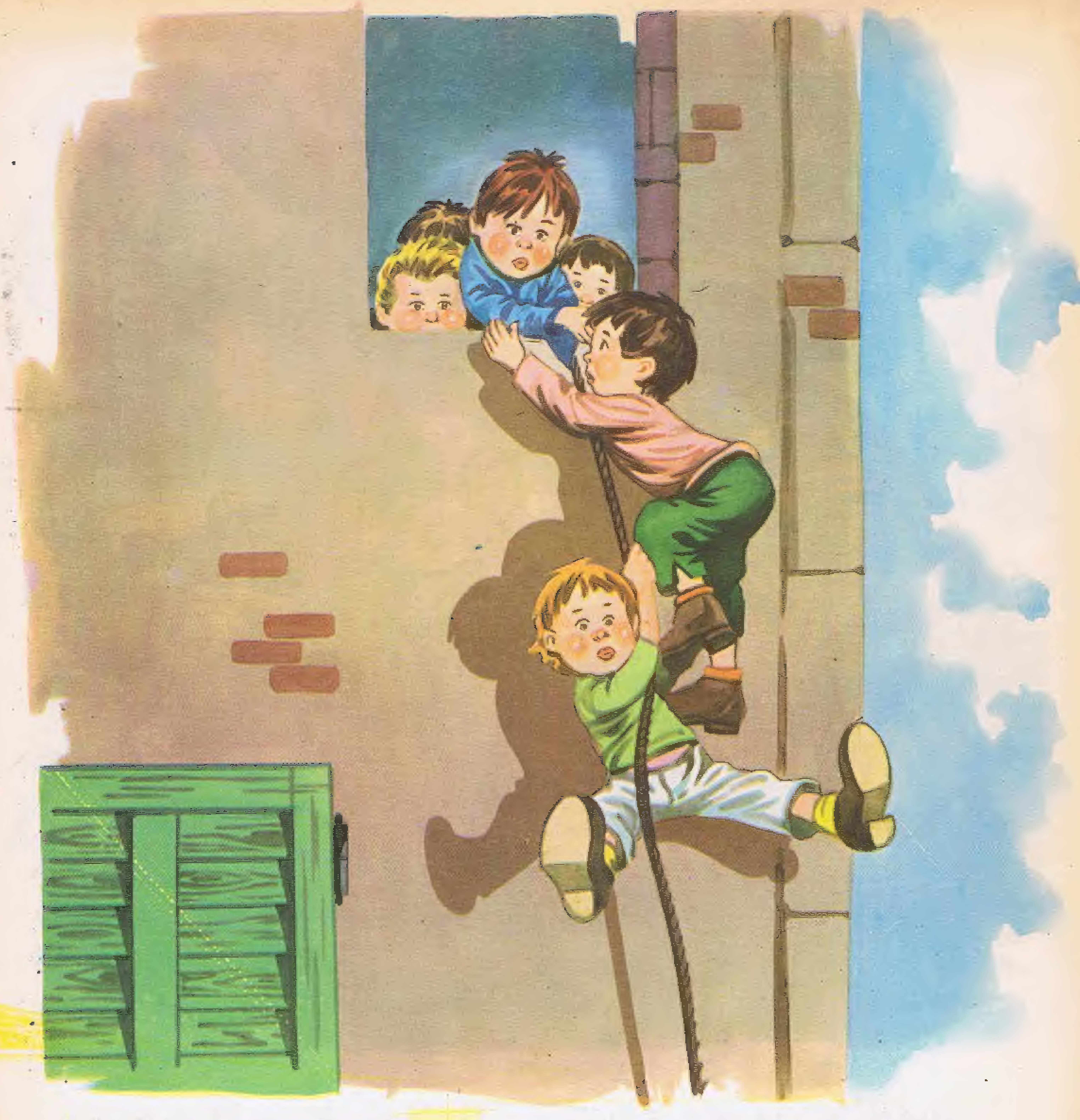
وَطَفِقَ ٱلْأَوْلَادُ يَبْكُونَ فَقَالَ لَهُمْ « بُلْبُل » ، لَا تَبْكُوا. وَصَعِدَ عَلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ فَرَأَى نُورًا بَعِيدًا فَنَزَلَ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ وَقَالَ ، هَيَّا بِنَا. وَسَارُوا جَمِيعًا حَتَّى بَلَغُوا ٱلْبَيْتَ ٱلَّذِي كَانَ ٱلنُّورُ يَنْبَعِثُ مِنْهُ وَطَرَقَ « بُلْبُل » ٱلْبَابَ فَسَمِعَ صَوْتًا يَقُولُ ، مَنِ ٱلطَّارِقُ ؟ فَقَالَ ،



نَحْنُ أَوْلَادٌ إِخْوَةٌ قَدْ ضَلَلْنَا ٱلطَّرِيقَ فِي ٱلْغَابَةِ فَنَسْأَلُكُمْ قَلِيلًا مِنَ ٱلْخُبْزِ وَقَلِيلًا مِنَ ٱلْقَشِّ نَنَامُ عَلَيْهِ. وَفَتَحَتْ لَهُمُ ٱمْرَأَةٌ وَقَالَتْ : وَيْلِي عَلَيْكُمْ ، أَيُّهَا ٱلْأَوْلَادُ ٱلْمَسَاكِينُ ! هٰذَا بَيْتُ ٱلْغُولِ فَٱهْرُبُوا قَبْلَ أَنْ يَعُودَ إِلَى ٱلْبَيْتِ وَيَأْكُلَكُمْ . وَعَلَى كُلِّ حَالٍ ٱدْخُلُوا وَٱخْتَبِئُوا وَكُونُوا فِي رِعَايَةِ ٱللهِ .



وَفِي ٱللَّيْلِ عَادَ ٱلْغُولُ إِلَى ٱلْبَيْتِ وَمَا دَخَلَ حَتَّى قَالَ : يَا كَاتِرِينَا ، أَشُمُّ رَائِحَةَ ٱللَّحْمِ ٱلطَّرِي .
وَدَخَلَ ٱلْغُرْفَةَ ٱلَّتِي كَانَ ٱلْأَوْلَادُ مُخْتَبِئِينَ فِيهَا تَحْتَ ٱلسَّرِيرِ لَكِنَّهُ لَمْ يَرَ مِنْهُمْ سِوَى « بُلْبُل »
وَأَخٍ لَهُ ، فَقَالَ لِكَاتِرِينَا ٱمْرَأَتِهِ : أَطْعِمِيهِمْ هٰذِهِ ٱللَّيْلَةَ وَفِي ٱلْغَدِ آكُلُهُمْ جَمِيعًا .



وَقَبْلَ أَنْ يَطْلُعَ ٱلْفَجْرُ هَرَبَ ٱلْأَوْلَادُ مِنَ ٱلنَّافِذَةِ وَذَهَبُوا إِلَى ٱلْغَابَةِ ثُمَّ ٱجْتَازُوا مَرْجاً وَكَانُوا خَائِفِينَ أَنْ يَتْبَعَهُمُ ٱلْغُولُ وَيَفْتُكَ بِهِمْ.



وَفِي ٱلْوَاقِعِ لَمْ يَنْقَضِ بَعْضُ ٱلْوَقْتِ حَتَّى سَمِعُوا خُطًى تَسِيرُ إِلَيْهِمْ مُسْرِعَةً وَتَهُزُّ ٱلْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا وَتَرْتَجِفُ مِنْهَا أَغْصَانُ ٱلشَّجَرِ فَأَصْعَدَ « بُلْبُل » إِخْوَتَهُ إِلَى شَجَرَةٍ عَالِيَةٍ ٱخْتَفَوْا بَيْنَ وَرَقِهَا ٱلْغَضِّ وَجَاءَ ٱلْغُولُ وَكَانَ قَدْ تَعِبَ وَتَصَبَّبَ ٱلْعَرَقُ مِنْهُ فَجَلَسَ وَهُوَ يَلْهَثُ ، عِنْدَ جِذْعِ ٱلشَّجَرَةِ .



وَمَا لَبِثَ أَنْ نَامَ وَغَطَّ غَطِيطًا هَائِلًا وَعِنْدَئِذٍ نَزَلَ « بُلْبُل » بِتَأَنٍّ مِنَ ٱلشَّجرةِ وَنَزَعَ جَزْمَةَ ٱلْغُولِ مِنْ رِجْلَيْهِ حَتَّى لَا يَتَمَكَّنَ مِنَ ٱللَّحَاقِ بِهِمْ. ثُمَّ لَبِسَ ٱلْجَزْمَةَ وَنَادَى بِإِخْوَتِهِ فَنَزَلُوا مِنَ ٱلشَّجَرَةِ وَعَدَوْا مُسْرِعِينَ إِلَى ٱلْبَيْتِ وَهُمْ يَصِيحُونَ: أُمِّي! أُمِّي!



وَلَمَّا سَمِعَتِ ٱلْأُمُّ صَوْتَهُمْ رَقَصَ قَلْبُهَا فِي صَدْرِهَا وَنَهَضَتْ عَنِ ٱلْكُرْسِيِّ ٱلَّذِي كَانَتْ جَالِسَةً عَلَيْهِ تَبْكِي وَتَنْدُبُ أَوْلَادَهَا وَرَكَضَتْ إِلَى خَارِجِ ٱلْبَيْتِ فَٱرْتَمَى «بُلْبُل» عَلَى صَدْرِهَا وَتَعَلَّقَ بِعُنُقِهَا وَٱلْتَفَّ إِخْوَتُهُ مِنْ حَوْلِهَا ٱلْتِفَافَ ٱلْهَالَةِ بِٱلْقَمَرِ وَهُمْ يَصِيحُونَ، أُمِّي! أُمِّي! أُمِّي!



مجموعة قوس الغمام

٨

منشورات المكتبة البولسية
شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩-١١ لبنان
هاتف: ٤٤٤٩٧٣ - ٤٤٨٨٠٦ - ٤٤٩٨٠١
شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان
هاتف: ٩١١٥٦١ - ٩٣٣٠٥٢

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة البولسية
١٩٨٦